الحجاج في البيان النبوي

مفهوم المخالفة للرابط الحجاجي"لكن" أنموذجا

د.علي حميداتو
جامعة البليدة 2 (الجزائر)

ملخّص:

يحاول هذا المقال الكشف عن الحجاج في البيان النبوي الشريف من خلال جهود علماء الحديث في شرحهم وتفسيرهم له، آخذين أحد مظاهره وهو توظيف الرابط الحجاجي(لكن) في متنه، وكيف يظهر مفهوم المخالفة من خلاله ، وبيان كيفية انبناء الخطاب المتضمن لهذه الوحدة التجسيرية، حيث يتجسّد مفهوم المخالفة والمعارضة وهو معنى حجاجيا بامتياز، يختلف عن المعنى النحوي(الاستدراك). وذلك بتحليل نماذج تطبيقية من البيان النبوي الشريف ومن خلال شرح: محمد بن علاّن الصّدّيقي، الشافعي المكّي في كتابه: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين .

Summary:

The current article is an attempt to clarify the argumentation in Elbayan Anabaoui from Elhadith scientits. Through which the concept of opposition is used by the argumentative linking word (But) -lakin- as a sample.In addition to the announcement of how discourse is buildt through the use of this connector.

Therefore the concept of opposition incarnates an argumentative meaning that from the grammatical meaning.Thus pratical examples from El bayan Anabaoui are analysed by Mhamed Ben Allan Assaddik Alchaffey El makki explanation.

1- **تقديم:**أن يكون النص منطقة للتفكير أو حقلا للبحث معناه أنه يحتاج إلى قراءة تحوّله من مجرد إمكان إلى فعل معرفي منتج(1)هكذا يقول(علي حرب) في كتابه:نقد النص. ومقالنا هذا لايتغيّا القراءة بعينها بما هي فعل معرفيّ ، بل يروم الكشف عن آلية اشتغال الرابط الحجاجي(لكن) في البيان النبوي ، وإن كان ذلك لايجتزأ من فعل القراءة ذاتها بل على العكس فنحن حينما نجتزئ من القراءة إيضاح كيفية انبناء الخطاب الذي يحتوي الوحدة التجسيرية"لكن" فنحن لانلغيها ، وحينها تكون قراءتنا ممكنة ،أعني نرجو لها أن تكون فاعلة ومنتجة في الآن نفسه.

ذلك أن البيان النبوي نصّ لغويٌ يتألف من وقائع خطابية ، يستخدم آليات خاصة في إنتاج المعنى ، وله إستراتيجية مختلفة عن النصوص الأخرى في توظيف الدلالة .لأجل ذلك تُعدّ زاوية الرؤية في هذا الحقل الخصب كشفا عن حس وإدراك علمائنا الأجلاء للمعاني الخفية للرابط الحجاجي (لكن) ولدورها الخفيّ في الجمع بين المتناقضات درءا للتوهم الذي قد يفهمه متلقي البيان النبوي، وإيضاحا لمعاني الخلاف والتناقض بين النتائج الضمنية الحجاجية التي يحتويها هذا الرابط ، من خلال ما بسطه: محمد بن علاّن الصدّيقي في كتابه: دليل الفالحين- كما هو مبين في عنوان المقال.

2- **موقع الحجاج في الدراسات الحديثة:** تعود أهمية الحجاج في الدراسات الحديثة إلى العودة القوية للبلاغة العربية ولأجل ذلك نجد اللسانيات التداولية اليوم تقاسمها -البلاغة- نفس الاهتمام، لواقع استعمال اللغة، وقوانين الخطاب، وشروط إنتاجه(2) وما قام به "طه عبد الرحمن" في هذا المجال من اهتمام بالمخاطب وشروط التداول اللغوي منطلقا من اعتبار: أن يكون لكل أصل في اللغات الإنسانية أصلا" تبليغيا، تدليليا، توجيهيا(3) خير مثال على ذلك.

وعموما فإن البلاغة الحديثة قد ركزت على جانبين أساسيين هما:(البيان) و(الحجاج) كوسيلة أساسية من وسائل الإقناع، إلا أن الحجاج له خاصية أساسية وهو كونه يعطينا صورة واضحة عن أقطاب عملية التواصل(المرسل والمرسل إليه) فبوساطة الحجج المستعملة ندرك جيدا مقام كل قطب ومنزلته وإمكاناته الفكرية الأمر الذي جعلنا نلفي أن الخطاب الحجاجي هو خطاب موجه، وكل خطاب يهدف إلى إفهام المرسل أليه يسوغ استعمال الإقناع كإستراتيجية لها بعدها الحجاجي.

3- **الحجاج في البيان النبوي:** إن مظاهر الحجاج في البيان النبوي الشريف متعددة ، ولأجل ذلك نروم في هذا المقال التمثيل لإحدى الأدوات والصيغ الحجاجية "لكن". ذلك أن القوالب الحجاجية في البيان النبوي كثيرة منها : التشبيه بأنواعه، الجملة الواقعة صفة ، والجملة المثبتة، و واو الحال، الاستفهام(السؤال).... وغيرها كثير.

البيان النبوي خطاب حجاجيٌّ بامتياز لكونه يعرض على عديد المتلقين له أمرا أساسيا يتمثل في (عبادة الله الواحد الأحد والتمسّك بعُرى دينه الحنيف الذي ارتضى لنا) ويقدّم البيان النبوي لذلك منهاجا وسراجا ينير لنا درب الفلاح ما إن تمسكنا بهديه بعد كتاب الله سبحانه وتعالى لقوله صلى الله عليه وسلم: تركتُ فيكم ما إن تمسكتم به لن تظلوا من بعدي أبدا، كتاب الله وسنتي...(الحديث).

ولما كان هؤلاء المتلقين للبيان النبوي من مستويات مختلفة جاء الحجاج فيه بمستويات ومظاهر مختلفة كذلك ، وهي سمة أساسية من سمات الخطاب الحجاجي(4).

ولكي نمثل البنية الحجاجية لـ"لكن" في البيان النبوي والتعريف بدورها نرتكز على أطروحات عديدة منها ما قدمه J.M.Adam في أعمال كثيرة منها:

-Eléments de linguistique textuelle1990
-Les textes :types et prototypes1992

الذي استفاد من سابقيه من الباحثين أمثال:...Tolmin,Plantin,Prelman,Ducrot كما تستفيد أيضا من أعمال:Domunique Maingueneau خاصة كتابهPragmatique pour le discours litteraire (5)

4- الرابط الحجاجي "لكن"

لهذه الأداة دور(رابط حجاجي) connecteur argumentatif يمكن تمثيل بنيتها على هيئة المربع التالي(6):

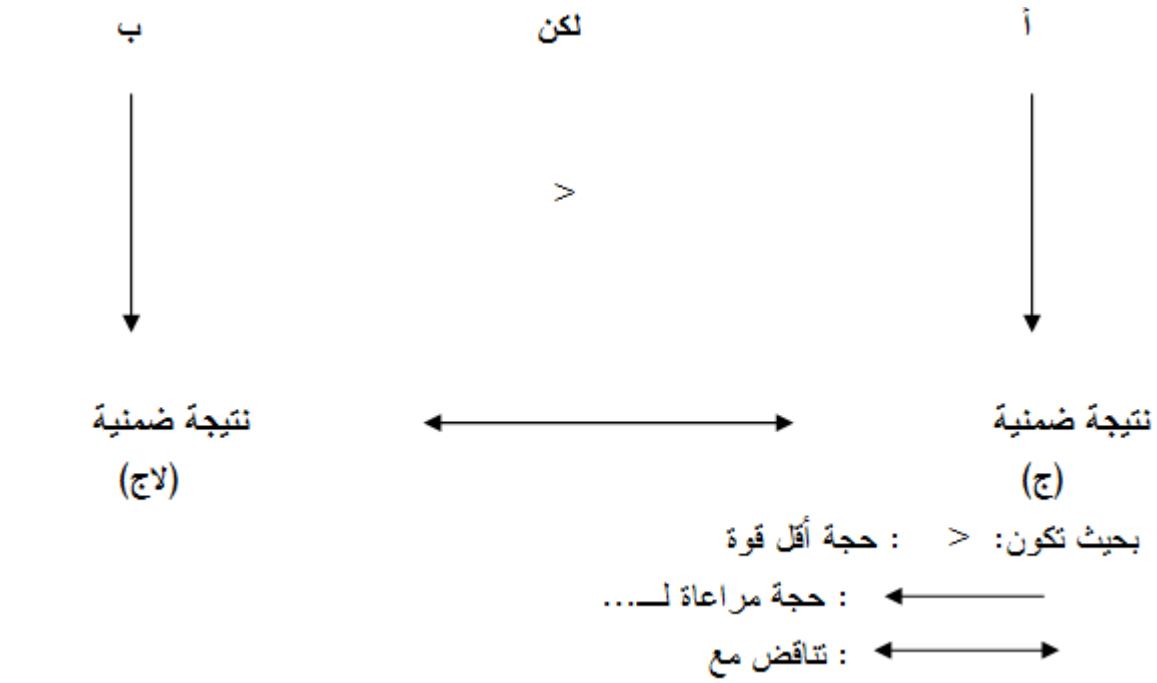

5- الأمثلة:

مثال(1): عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبي صلى الله عليه وسلم((لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهادٌ ونيةٌ، وإذا استنفرتم فانفروا)) (7)متفق عليه.

نمثل لبنية "لكن" في هذا الحديث الشريف كما يأتي:

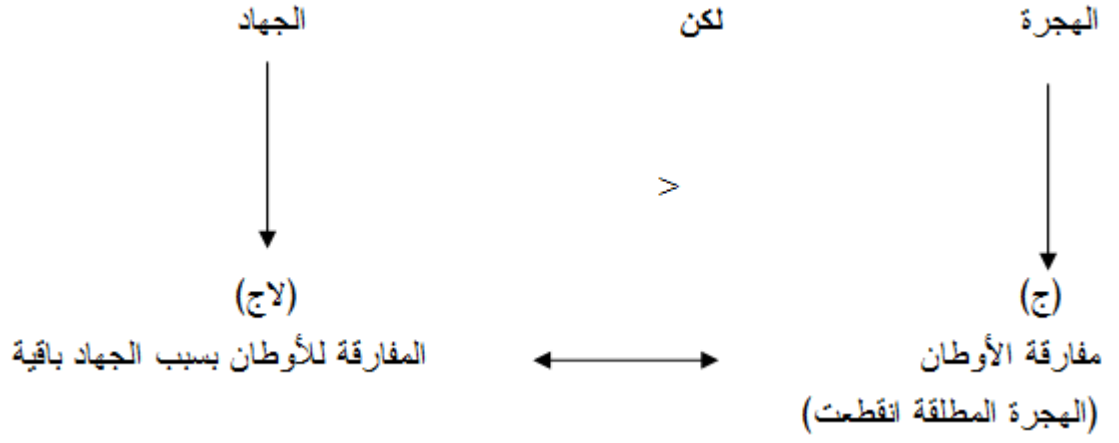

يقول محمد بن علاّن الصدّيقي:((قال الطيبي: كلمة لكن تقتضي مخالفة ما بعدها لما قبلها:أي المفارقة عن الأوطان المسماة بالهجرة المطلقة انقطعت، لكن المفارقة بسبب الجهاد باقية مدى الدهر...)) (8)

إن الذي يعنينا من المقولة السابقة هو معنى" المخالفة" للنتائج الضمنية المستخلصة من(أ) و(ب) أي (ج) و(لاج) –كما مبين أعلاه- ذلك أن علمائنا في اللغة العربية في تراثنا العربي لم يقفوا عند المعنى النحوي لـــ"لكن" ألا وهو الاستدراك ، بل أدركوا ببصيرتهم معنى المخالفة والمعارضة من خلال الروابط الحجاجية المستعملة في الجدل والحجاج.

فالرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث السابق: يصرح تاركا(أ) الهجرة ، لأجل أن يرتكز على (ب) الجهاد ، لتكون لها القوة القصوى ، التي هي برهنة بترك(أ) الهجرة بتأكيده (لاهجرة لكن جهاد) حيث خص الأولى إلى معارض

ومخالف ، وضعه في مضان خطابه، مسقطا وجهة النظر لحساب(الجهاد) لينقاد وليستميل مخاطبه بجعله متمثلا (ب) ليعطي لها الامتياز(9).

إن الدلالتين اللتين تربطهما الوحدة التجسيرية (لكن) يُظهران القيمة التالية: عند تلفظنا (أ) لكن(ب) متلقي الخطاب يقول إلى حدّ ما: (أ) صحيحة بحصوله على النتيجة الضمنية(ج)(مفارقة الأوطان انقطعت) ثم لا يمكن ذلك لأن(ب)(الجهاد) مقدّمة كحجة قوية للنتيجة الضمنية(لاج)(المفارقة بسبب الجهاد أو طلب العلم أو الفرار بالدين باقية)(10).

يظهر مما سبق أن".. كل محاجة تتجه نحو النتيجة ، والتي يتوجّب على المتلقي الحكمُ بقبولها حتى وإن لم تعط له مسبقا، هذه الأخيرة ترتكز على معطيات لأجل نقض القضية الداخلية(أ) وتبيان صحة القضية(ب)(11)

مثال(2): عن أبي هريرة عبد الرحمن بن صخر رضي الله عنه قال:قال الرسول صلى الله عليه وسلم((إن الله تعالى لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صُوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم))(12) رواه مسلم

نعرض لبنية لكن في هذا الحديث كما يلي:

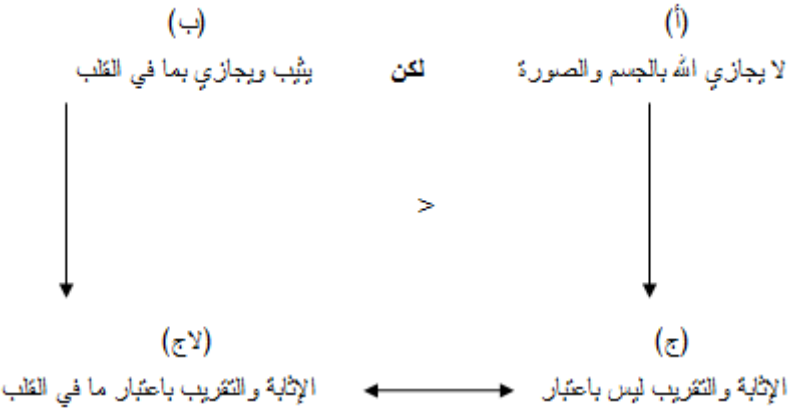

يقول محمد بن علاّن:"معنى نظر الله هنا مجازاته وإثابته ، وهذا بعينه يأتي في قوله تعالى:(ولا ينظر إليهم، وإلا فنظرة الله تعالى الذي هو رؤيته للموجودات واطلاعه عليها لا يخصّ موجودا دون موجود ، بل يعمُّ جميع الأشياء ، إذ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، والحاصل أن الإثابة والتقريب ليس باعتبار الأعمال الظاهرة وإنما هي باعتبار ما في القلب كما قال(ولكن ينظر إلى قلوبكم)(13)

يفهم من الكلام السابق بناء على معنى المخالفة في "لكن"أن: نتائج الحجج(ا) متناقضة مع نتائج الحجج(ب) أي أن: الإثابة والتقريب من الله تعالى ليس باعتبار الأعمال الظاهرة وإنما تكون باعتبار ما في القلب وعليه فالحجة(ب) أقوى من الحجة(أ) وهي حجج ضمنية يمكن استخلاصها من: الظاهر≠ الباطن.

فالدور الذي لعبه الرابط الحجاجي"لكن" أساسي باعتبار أنه يسمح للمحاج تقديم معلومات على أساس أنها حجج.

مثال(3): عن أنس رضي الله عنه قال: ((جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أخبروا كأنهم تقالوها وقالوا: أين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وقال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبدا، وقال آخر: وأنا أصوم الدهر أبدا ولا أفطر، وقال الآخر: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا. فجاء الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم فقال:انتم الذين قلتم كذا وكذا ،أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصومُ وأفطرُ وأصلّي وأرقدُ وأتزوّجُ النساء، فمن رغب عن سنّتي فليس منّي))(14) متفق عليه

يمكن عرض بنية"لكن" الحجاجية في هذا الحديث على النحو الآتي:

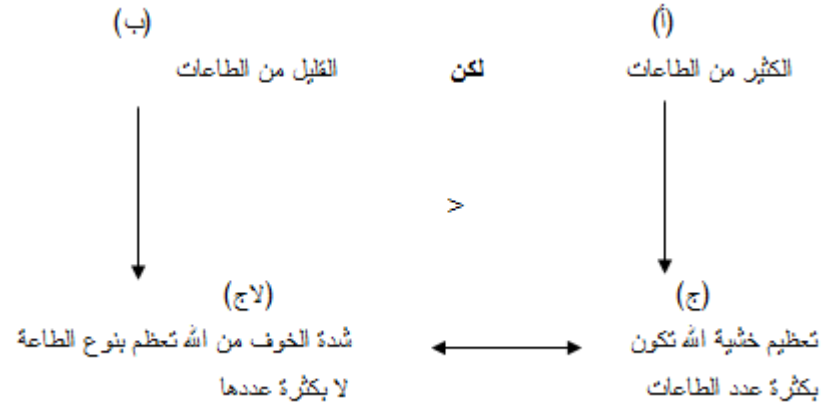

إن ما بسطه "محمد بن علان الصديقي" في شرحه للحديث يظهر بوضوح الدقة في استنتاج واستخلاص النتائج الضمنية للحجة(أ) و(ب) أي(ج) و(لاج) واللتان لم يصرح بهما في متن الحديث، حيث يظهران متناقضتين فتعظيم خشية الله بكثرة الطاعات ≠ يتناقض مع: شدة خوف الله تعظم بنوع الطاعة لا بكثرة عددها. وهو إدراك بمسألة المخالفة والمعارضة والتناقض الذي ينبني عليه الرابط الحجاجي(لكن) وفي هذا يقول:"إن إخباره بشدة الخوف وعظم الخشية عظم بالنوع لا بكثرة العدد: أي إذا صدر منه الخوف ولو في زمن فرد كان أشد من خوف غيره(أهـ). (لكني أصوم) تارة(وأفطر) تارة أخرى (وأصلي) أي أتهجد في بعض الليل أداء لحق العبودية(وأرقد) أداء لحق النفس(وأتزوج النساء فمن رغب) أي أعرض (عن سنتي) طريقتي(فليس مني) من هذه تسمى اتصالية: أي ليس متصلا بي ليسمى قريبا مني، والسُّنّة مفرد مضاف إلى معرفة ، فتعُمُّ على الراجح وتشمل الشهادتان وأركان الإسلام فيكون الراغب عن ذلك مرتدّا.

وقال المطرزي في (شرح المصابيح): يعني من ترك ما أمرت به من أحكام الدين فرضا أو سنة على سبيل الاستخفاف وعدم الالتفات إليّ ، فليس منّي لأنه كافرٌ، أمّا من تركه لا عن استخفاف بل عن الكسل ، لم يكن كافرا وحينئذ فقوله(فليس مني) أي من المقتدين بي والعاملين بسنتي"(15)

المثال (4): عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((ليس الواصلُ بالمكافئ، ولكن الواصل إذا قُطعت رحمُه وصلها))(16) رواه البخاري.

نوضّح طريقة انبناء الرابط الحجاجي(لكن) في متن هذا الحديث كما يلي:

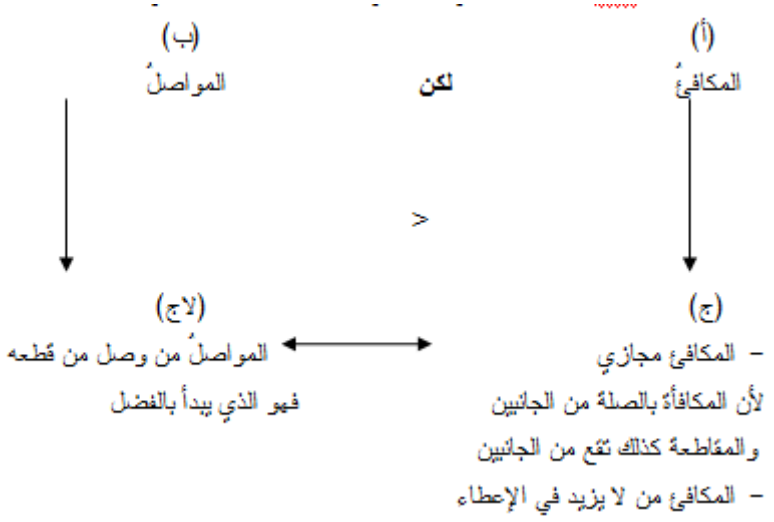

على ما يأخذ.

إن القيم الخلافية المتناقضة بين(ج) و(لاج) الضمنية مبثوثة فيما يصرح به "محمد بن علان الصديقي في شرحه للحديث النبوي الشريف ، إلا أنها لم تكن بالمفهوم المتعارف عليه اليوم عند أهل الحجاج والجدال ،لكنه شعور بقيم الخلاف الذي هو سبب نشأة الحجاج والجدال –كما هو معروف عند أرسطو - وفي هذا يقول"محمد بن علان" مستشهدا بكلام السيوطي:((قال السيوطي في شرح الترمذي: المراد في هذا الحديث الكامل ، فإن في المكافأة نوع صلة بخلاف من إذا وصله قريبه لم يكافئه فإن فيه قطعا بإعراضه عن ذلك..))(17).

والذي يفهم من ذلك أن الحجج الضمنية التي تحتويها (ج) هي:

- المكافئ فعله فعل جزاء في وصله
- المكافئ فعله فعل جزاء في قطيعته

فهو إذن: لا يزيد في الإعطاء على ما يأخذ.

أما الحجج الضمنية التي تتناقض مع (ج) والتي تحتويها(لاج) نعرضها كما يلي:

- المواصل من يصل من وصله دون أن يكون فعله فعل جزاء.
- المواصل من وصل من قطعه.

فهو إذن: الذي يبدأ بالفضل.

وعليه يكون: المكافئ ≠ المواصل

إن قول "السيوطي" الذي استشهد به "محمد بن علان" يوضح بنية المخالفة والمعارضة بين الحجج الضمنية لـ(ج) والحجج الضمنية لـ(لا ج) وهو إحساس – كما أسلفنا الذكر- خفي بالمعاني الحجاجية التي ينبني عليها الرابط الحجاجي (لكن).

المثال(5): عن أبي عبد الله عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: ((سمعت النبي صلى الله عليه وسلم جهارا غير مسرّ يقول: " إن آل أبي فلان ليسوا بأوليائي، إنّما وليّ الله وصالح المؤمنين، ولكن لهم رحمٌ أبُلّـُـها ببلالها"(18)

نمثل لبنية (لكن) في هذا الحديث عل النحو الآتي:

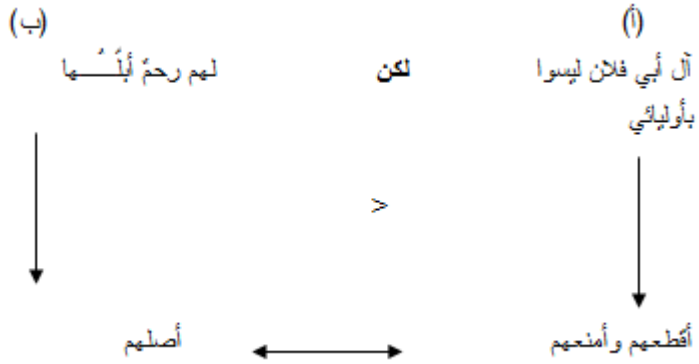

يمكن استنتاج النتائج الضمنية لـ(أ) أي (ج) و لـ(ب) أي (لاج) كما يلي:

النتائج الضمنية(ج):	النتائج الضمنية(لاج):
-لا أخص قرابتي ولا فصيلتي الأدنين بولاية دون المسلمين.	- أعطي رحمهم حقها.
وينتج عن ذلك أنّي : أمنعهم وأقطعهم	– لأن رحمهم معي في الطالبية
	وينتج عن ذلك: إنّي لا أمنعهم بل أصلهم.

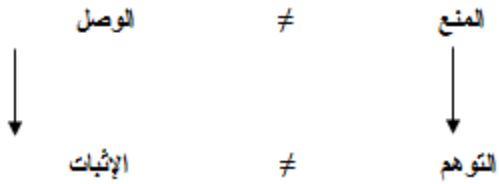

يظهر بوضوح كيف أن الرابط الحجاجي (لكن) جعل من متلقي الخطاب يرفع اللّبس والتوهم عن نفسه ويقوم فهمه واعتقاده بذلك إلى ما هو مثبت بعد(لكن) مما يجعل الحجة(ب) أقوى من الحجة(أ) وفي هذا يقول "محمد بن علان الصديقي": ((وفي تعليق المصابيح للدماميني قال ابن عربي في سراج المريدين:" معنى الحديث آل أبي طالب، قال ومعناه: أنّي لست أخصّ قرابتي ولا فصيلتي الأدنين بولاية دون المسلمين، وإنما رحمهم معي في الطالبية فسأبلّها ببلالها: أي أعطيها حقها فإن المنع عند العرب يبسٌ، والصلة بلٌّ (إنما ولي) أي: ناصري والذي أتولاه في جميع الأمر (الله وصالح المؤمنين)... (ولكن) استدراك لما قد يتوهم من عدم مواصلتهم بإثباتها بقوله:(لهم رحم أبُلُّها ببلالها)(19).

6- **الخلاصة:** يظهر مما سبق لعرضنا من تنوع للأمثلة واختلاف للشواهد ما يلي:

- إن آلية توظيف الرابط الحجاجي(لكن) في البيان النبوي يمكن أن نبسط بنيتها على هيئة مربع- كما في الأمثلة المطروحة-
- يظهر الرابط الحجاجي (لكن) النتائج الضمنية المتناقضة والتي عبر عنها صاحب الكتاب بمعنى المخالفة.
- إن معنى المخالفة والمعارضة والتناقض بما هي معان حجاجية، مبثوثة في كتابات علمائنا الأجلاء شراح البيان النبوي ومنهم "محمد بن علان الصديقي الشافعي.
- البيان إظهار المقصود بأبلغ لفظ وهو عين ما رأينا من خلال كيف يعمل الرابط الحجاجي على استدراك التوهم بأقل العبارات.
- البيان النبوي يحتوي على قدر عال من التبليغ والإقناع وهو مستوى الإبانة، كيف لا؟ وقد أعطي النبي صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم.
- البيان النبوي به مظاهر مختلفة من الحجاج باختلاف المتلقين.
- يظهر البيان النبوي أقطاب عملية التواصل وإمكانات كل قطب ومستوى تفكيره واعتقادهن وملابسات المقام وظروف التلقي.
- إن توظيف الحجاج في البيان النبوي يجعل منه خطابا حجاجيا بامتياز.
- للرابط الحجاجي (لكن) دور مهم وأساسي باعتباره يسمح للمحاج بتقديم معلومات على أساس أنها حجج.

7- المراجع والمصادر:

1-علي حرب، نقد النص(النص والحقيقة1) المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2 1995 ص.20

2-محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ج2 المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ص20.

3- طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، ط2، 2000، ص.27

4-J.Moeschler,argumentation et conversation,hatier 1985.

5-Domunique Maingueneau,pragmatique pour le discours litteraire,dunod, paris 1997,pp58,59

6-

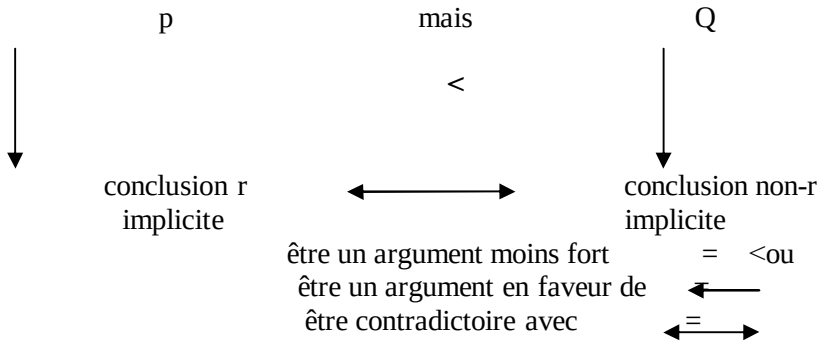

7-محمد بن علان الصديقي، دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين،مج1، ج1 دار الفكر، بيروت1980 ص50.51

8- نفسه، ص.51

9- Domunique Maingueneau,pragmatique pour le discours litteraire,op cit,p59

10-ipid ,p59

11-Jean-Francois Jeandillou,l'analyse textuelle,armand colin/mason,paris1997 p143.

12- محمد بن علان الصديقي، دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين،مج1، ج1،المرجع المذكور،ص61.

13- نفسه،مج1،ج1 ص.61

14-نفسه،مج1،ج1 ص.382

15- نفسه، مج 1،ج1ص382.

16- نفسه، مج2، ج2، ص.159

17- نفسه.

18- نفسه172 وما يليها.

19- نفسه،مج2،ج2،ص173.